القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

مقتل عثمان

عبد الحميد جودة السحار

١٥



« طَهَ مَا أَنْزَلنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتشْقَى »

(قرآن كريم)

(سورة طه)

١

استمرَّتْ خيوطُ التآمُرِ على عثمانَ تُحاكُ فى الظَّلام ، ونالَ النَّاسُ منه أكثرَ ما نِيلَ مِن أحد . وكاتَب أهلُ مصرَ أشياعَهم من أهلِ الكوفةِ وأهلِ البصْرة ، وتواعدوا على اللّقاء فى المدينة ، فخرج أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ مظهرين رغبتهم فى الحجّ ، وخرج أهلُ الكوفةِ والبَصْرَة ؛ وبالقُرب من المدينةِ سارتِ الرُّسلُ بين جماعاتِ الثُّوَّار .

بلغ عثمانَ أنَّ الثُّوَّار قد ساروا إلى المدينة، وكان يعلمُ منزلةَ علىٍّ فى النّاس ، فأرسلَ إليه ، يَطْلب منه أن يخرجَ للِقائِهم وردِّهم ، فخرج علىٌّ وقابل أهلَ مِصر ، ثمَّ عادَ إلى عثمانَ وقال له :

- إنَّ وفدْ مِصرَ يطلبُ عزلَ عبدِ اللّهِ بنِ أبى سرْح .

كان عبدُ اللّهِ واليا على مصر ، وقد كرِهَ النّاس ولايتَه ، وساعد على كُره النّاسِ له ، ما كان يُذيعه عنه محمَّدُ بنُ أبى بكر وأنصارُه . وقَبِلَ عثمانُ رغبةَ المِصريِّين ، فأرسل إليهم ، يقول :

- اختاروا عليكم رجلاً مكانَه .

فاختارَ النَّاسُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، فكتب عثمانُ عهدَه له وولاّه ، فتأهَّب أهلُ مصرَ للعودة إلى ديارِهم ، وسَرَى هذا النَّبأ فى المدينةِ فانتعشتْ ، وانقضى هذا اليومُ بسلام ، وأقبلَ اليومُ التالى ، فدخل مرْوانُ بنُ الحكَم ، وكان مستشارَ عثمانَ وقريبه ، وقال له :

- تكلّم . أعلِمِ النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ قد رجَعوا وأنَّ ما بلغهم عن إمامِهم كان باطلا ، فإنَّ خُطبَتَك

تسيرُ فى البلاد ، قبل أن يتحلَّبَ (يفدَ) النّاسُ عليك من أمصارهم ، فيأتيكَ من لا تستطيعُ دفعَه .

فأبى عثمانُ أن يخرجَ ليخطُب ، ولكنَّ مروانَ لم يَزلْ به حتّى خرج ، واعتلى المِنبرَ وقال :

ـ أما بعد ، إنَّ هؤلاءِ القومَ من أهلِ مِصرَ كان بلغَهُم عن إمامِهم أمر ، فلما تيقّنوا أنه باطلٌ ما بلغهم عنه ، رجَعوا إلى بلادِهم .

وكان عمرُو بنُ العاصِ فى المسجد ، وكان عاملاً على مِصرَ وقد عزلَه عثمان ، فأرادَ أن يُثيرَ النّاس على عثمان ، فقال :

ـ اتّقِ اللّهَ يا عثمان ، وتُبْ إلى اللّه .

وهمَّ عثمانُ أن يرُدَّ على عمْرو ، ولكنَّ صوتًا آخرَ نادى من ناحيةٍ أخرى :

ـ تُبْ إلى اللّه ، وأظهِرِ التوبة ، يكُفَّ النّاسُ عنك .

فرفع عثمانُ يديه مدّا ، واستقبلَ القِبلَة وقال :
ـ اللهمَّ أنى أوَّلُ تائبٍ تابَ إليك .

٢

خرج محمَّدُ بنُ أبى بكر إلى مِصر ، وخرج معه عددٌ من المهاجرينَ والأنصار ، ينظرون فيما بينَ أهلِ مِصرَ وابن أبى سَرْح . وانطلق الرَّكب ، وترك المدينة ، وانقضتْ ثلاثةُ أيّام ، ولمحَ النّاسُ غلامًا أسودَ على بعيرٍ يخبطه خبطا ، فانتظروه لعلَّه يقصِدُهم لحاجة ، ولكنَّه لما حاذاهم لم يتمهَّل ، ولم ينتظِر ، بل استمرَّ فى سيره . فارتابوا فى أمرِه ، وبعثوا من يطلبُه ، فجيءَ به ، فسألوه :
ـ ما قضيّتك وما شأنُك ؟ أهاربٌ أم طالبٌ أحدا؟

ـ لا هذا ولا ذاك ، وإنّما أنا غلامُ أميرِ المؤمنين ، وجَّهنى إلى عامله فى مصر .

فأشار رجلٌ إلى محمَّدِ بنِ أبى بكر ، وقال :

ـ هذا عاملُ مِصر .

ـ ليسَ هذا أريد .

وأراد الغلامُ أن يستأنِفَ سيرَه ، ولكنَّ محمَّدَ ابنَ أبى بكر قبضَ عليه ، وقال له :

ـ غلامُ مَنْ أنت .

ـ غلامُ أميرِ المؤمنين .

فنظر محمّدٌ نظرةً حادّة ، وقال وهو يهُزُّه :

ـ أحقّا ؟

فقال الغلامُ فى خوْف :

ـ بل غلامُ مَرْوان .

فقال له محمَّدُ بنُ أبى بكر :

ـ إلى من أُرسلْت ؟

ـ إلى عاملِ مصر .
ـ بماذا ؟
ـ برسالة .
ـ مَعَكَ كتاب ؟
ـ لا
ـ فتّشوه .

فَفتشوه فوجدوا معه كتابًا من عثمانَ إلى ابنِ أبى سرح ، فجمع محمَّدُ بنُ أبى بكر من كان عندَه من المهاجرينَ والأنصار وغيرِهم ، ثم فكَّ الكِتاب بمحضَرٍ منهم ، وراح يقرؤُه ، فرأى أنَّ عثمانَ يأمُر عبدَ اللهِ بنَ أبى سرحٍ بقتلِه وقتلِ أصحابِه ، فعاد محمَّدٌ إلى المدينة ، وقد عزم على قتلِ عثمان .

٣

سَمِع أهلُ المدينةِ أصواتَ التكبير ، فخرجوا يسألون : ما الخبر ؟ فعلِموا أنَّ المِصريّينَ قد عادوا

٣

أجرى عَمـرو بـنُ العـاصِ الخيـلَ بمصر ، فـأقبلتْ فَرَس ، فلما رآهـا النـاسُ قـام محمـدُ بـنُ عمـرو بـنِ العاص ، فقال :

ـ فرسي وربِّ الكعبة .

فلما دنـتِ الفـرس ، عرفَهـا صاحبُهـا المِصـرىّ ، فقال : فَرَسِي وربِّ الكعبة .

فقـام محمـدُ بـنُ عمـرِو بـنِ العـاصِ إلى المِصـرىّ ، فضربه بالسَّوْطِ ، وقال :

ـ خُذْهُا وأنا ابْنُ الأكْرَمَيْن .

بلغ ذلك أباه عمرَو بنَ العاص ، فخشيَ أن يشكوَ المِصرىُّ ما نالَـهُ لأمـيرِ المؤمنـين عمـرَ بـنِ الخطّاب ، فحبسَ الرّجـل ، ولكنـه هَـرَب مـن سجنِه ، وأتـى عُمر ، فأرسل عُمـر إلى عمـرو أن يأتيَـه مـن فَـوْرِه ،

ــ واللّـه مـا كتبـتُ ولا أمـرْتُ ولا شـوورْتُ ولا علِمت .

فقال عليٌّ بنُ أبى طالب :

ــ قد صدق .

فارتاح إليها عثمان ، وقال المصريّون :

ــ فالكتابُ كتابك ؟

ــ أَجَلْ ، ولكنه كُتِب بغير أمرى .

ــ فإنَّ الرسولَ الذى وجدْنا معه الكتابَ غلامُك؟

ــ أَجَلْ ، ولكنّه بغير إذْنى .

ــ فالجملُ جمَلُك ؟

ــ أَجَلْ ، ولكنه أخِذ بغيرِ علمى .

فقالوا له :

ــ مـا أنـتَ إلاّ صـادقٌ ، أو كـاذب ، فـإن كنـت كاذبًا ، فقـد استحققتَ الخلْع ، لما أمرتَ بـه مـن سفكِ دمائنا بغـير حقّهـا ؛ وإن كنـتَ صادقًا ، فقـد

استحققتَ أن تُخلعَ لضعفِك وغفلتِك وخُبثِ بطانتِك ، لأنّه لا ينبغى لنا أن نتركَ على رقابنا من يَقتطعُ مثلَ هذا الأمر دونَه ، لضعفِه وغفلتِه ، فارْدُد خلافتَنا ، واعتزِلْ أمرَنا ، فإنَّ ذلك أسلمُ منك ، وأسلمُ لك منا .

فقال عثمان :

ـ أمَّا قولُكم تخْلَعُ نفسَك ، فلا أنزِعُ قميصا قمَّصَنيه اللّهُ عز وجلّ ، وأكرمنى به ، وخصَّنى به على غيرى ، ولكنْ أتوبُ وأنزِع ، ولا أعودُ إلى شيء عابه المسلمون ، فإنّى واللّه الفقيرُ إلى اللّه ، الخائفُ منه .

ـ فلسنا منصرفين حتى نعزلَك ، ونستبدلَ بك .

٤

حُوصِر عثمانُ فى دارِه ، وقد حَصَره المِصريّون ، واشترك محمّدُ بنُ أبى بكرٍ معهم ، وأرسل علىُّ بنُ

أبى طالب ولديه الحسنَ والحُسينَ ليقوما على بابِ عثمان، يدافعان عنه، وجاء بنو أمية لينصروا عثمان، ومنع الثُّوّارُ عنه الماء، فأرسل إلى عليٍّ والزُّبيرِ وطلحة وعائشة، يقول لهم:

- إنَّهم منعونا الماء، فإن قَدَرتُم أن تُرسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا.

فجاء عليٌّ إلى الثّوّار، وقال لهم:

- يأيُّها الناس، إن الذى تفعلونه لا يُشبه أمرَ المؤمنين، ولا أمرَ الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرَّجل الماء، فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتأسِرُ فتُطعِمُ وتَسْقِى، وما تعرَّضَ لكم هذا الرجل، فبِمَ تستحِلُّونَ حَصْرَه وقتله؟

فقال الثّوّار.

- لا واللّه، لا نترُكه يأكل ولا يشرب ...

وحاول الثُّوارُ اقتحامَ الباب ، فبرز لهم الحسنُ والحُسينُ وابنُ الزُّبير ، ومن كان من أبناءِ الصَّحابة ، وتضارب الفريقان بالسُّيوف ، فنادى عثمانُ من يدافعونَ عنه :

ـ اللّهَ اللّه ! أنتم فى حِلٍّ من نُصرتى .

فرفضوا واستمرّوا فى القِتال ، ففتح عثمانُ الباب ، وخرج ومعه السيفُ لِيُنْهيهم ، فلما رأى الثُّوارُ عثمانَ ثبتوا مكانَهم قليلا ، ثم ولّوا فزعين ، فأقسمَ عثمانُ على المدافعينَ عنه : ليدخُلُنَّ ، فدخلوا ، فأغلق البابَ دونَ الثُّوّار .

جاء الثُّوّارُ بنار ، وأحرقوا البابَ ، والسَّقيفة ، فأخذ الخشبَ يحترق ، وأغفَى عثمانُ بنُ عفَّانَ ، ثم استيقظَ فقال :

ـ لولا أنْ يقولَ النّاسُ تَمَنَّى عثمانُ أمنيةً لحدَّثْتكم .

ـ أصلحكَ اللّه ، حدِّثْنا ، فلسنا نقولُ ما يقولُ النّاس .

ـ إنّي رأيتُ رسولَ اللّهِ في منامي هذا ، فقال : « إنّكَ شاهدٌ معنا الْجُمُعَة » .

وأكلتِ النّارُ الخشبَ ، فسقطتِ السَّقيفة ، فثار أهلُ الدّار ، وخرج الحسنُ والحسينُ وأبناءُ الصَّحابة يبادرُون الثُّوّار ، ووقف عثمانُ يُصَلّي في هدوء ، كأنّما الأمرُ لا يعنيه ، وجعل يقرأُ في صلاتِه : « طه . ما أنْزلنا عليكَ القرآنَ لتشقَى » . واستمرَّ في قراءتِه هادئَ النَّفْس ، وأتَمَّ صلاتَه ، ثم التفتَ إلى ابنِ الزبيْر ، وأمره أن يأمرَ الذين يدافعونَ عنه أن ينصرِفوا إلى منازلِهم .

واستمرَّ القتالُ ناشبًا أمامَ دارِ عثمان ، فَجُرِحَ الحسن ، فخشِيَ الثُّوّار أن يثورَ بنو هاشم للحسن ، فتسلَّق محمَّدُ ابنُ أبي بكر السُّور ، وتسلَّقه معه بعضُ

الثُّوَّار ، ودخلوا على عثمانَ دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك ممَّن كانوا بالباب .

وتقدَّم محمَّدُ بنُ أبي بكر من عثمان ، فأخذَ بلحيتِه فقال :

ـ ما أَغنَى عنك مُعاوية ، وما أغنَى عنك ابنُ عامر ، وما أغنتْ عنك كُتبُك ، على أيِّ دينٍ أنت ؟

ـ على دينِ الإسلام ، يابْنَ أخي . ما كان أبوكَ ليأخذَ بلحيتي .

أحسَّ محمَّدُ بنُ أَبي بكر خِزْيا ، فغطى وجهَه بيدِه ، ثمَّ انسحبَ خافضَ الرَّأس ، وحاول أن يدفعَ الثُّوّار المُقبلينَ لقتلِ عثمان ، ولكنَّه لم يُوفَّق ، فقد ضرَب أحدُهم عثمان بحربَتِه ، وضربه آخرُ بسيفِه . وقامت زوجتُه تدافعُ عنه ، فقطع السيفُ أصابعَها ، فصرختْ :

ـ قد قُتلَ أميرُ المؤمنين .

وبلغ صوتُها آذانَ المدافعينَ عنِ الباب ، فأسرعوا بالدّخول ، فوجدوا عثمانَ مقتولا ، فبكَوْا ، وذاع النّبأ : ألا إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد قُتل ، فأقبلَ عليّ ، ودخل الدّارَ وهو حزين .

ولم يجرُؤ أحدٌ على دفنِ عثمان ، خشيةَ بطشِ الثُّوار به ، فلما جاء الليل ، خرج أهلُ الدّار بجُثمانِ عثمانَ وهم يتلفّتون ، حتّى إذا بلغوا جدارا دفنوه ، وعادوا مسرعينَ وهم خائفون ، وهكذا دُفنَ عثمان خليفةُ المسلمين ، وصِهرُ الرّسول ، فى سكونِ اللّيل ، وفى غفلةٍ من الناس !